من مسجد الطين إلى الدرس العالمي

٤/ ٧/ ١٤٣٧هـ

في صيف عام ١٤٠٥ هـ تقريبًا اصطحبني أحدُ طلاب شيخنا العلامة العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى درسه في عنيزة، فلم يرُعْني إلا وأنا في وسط جدرانٍ طينية تحيط بالطلاب! وشـيخُنا يشرح في كتب عدة، منها: كتاب (منتقى الأخبار) للمجد ابن تيمية، وكان ذلك في صيف رمضان اللاهب، وكان عـدد الحضور قليلًا! فقفزتْ إلى ذهني تسـاؤلاتٌ كثـيرة، بدّدها جلَدُ الشيخ في تعليم الطلاب، وحرصُه على تنبيه الشارد، وإيقاظ من قد يدبّ النعاسُ إلى عينيه.

مضت السنوات، وتشرفتُ بعدها بخمسـة أعوام تقريبًا بالالتحاق بدروس هذا العالم النحرير، بعد أن انتقل شيخُنا إلى الجامع الكبير بعنيزة القائم حاليًّا باسـم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ واسـتمرت الطريقةُ نفسها، مع زيادة مكبّر الصـوت ليبلّغ الجمع الكثير من الطلبـة، الذين توافدوا عليه من أنحاء شتى من العالم -فضلًا على منطقة القصيم- وكانت تلك الدروس تسـجّل في أشرطةٍ بجهود فردية، إلى حدود عام ١٤٠٧ هـ تقريبًا، حتى دخلت بعضُ التسجيلات الإسـلامية، فانتظم الأمر، لكنه لم يخرج عن

حدّ الممكــن في ذلك الوقت، إذ تبقى بعضُ الــدروس أيامًا عدة، حتى تنتهي من التصفية وفق المعهود، ثم تنزل في السوق.

انتقلت الدروس بعد ذلك إلى مستوى أكثر تفاعلًا من كونه تسجيلًا فقــط إلى نقله مباشرة عــبر الهاتف لبعض الجمعيــات الخيرية في بعض دول الخليج، حيث استمعوا لشرح شيخنا لرسالةٍ مختصرة في ليالٍ عدة، فكان في ذلك فرصة لأولئك المســتمعين حيث يتاح لهم السؤالُ مباشرة، ويسمعون الجوابَ كذلك، وبقي الأمرُ على هذا الحال حتى توفي شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذ الإمكانات التقنية لم تُتح أكثر من هذا.

وبعد ســنتين أو ثلاث من وفاته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بدأ ما يُعرف بالبث المباشر للــدروس والفعاليات العلمية، فصار المتابعــون لهذه الدروس من كل مناطق العالم، وما زلتُ أتذكــر أول ما بُثّت بعض الدروس لبعض كبار العلــماء، وصارت تأتيهم أســئلةٌ مباشرة في أثناء الدرس، من روســيا، وأوروبا، وأمريكا، فضلًا على البلاد الإسلامية والعربية، والدهشةُ تعلو محيّا أولئك الأشياخ، وألســنتُهم تلهج بالحمد والشكر على تسخير تلك التقنية لإيصال العلم بأقل التكاليف.

وحين انتشر فنٌّ آخر من فنون نشر العلم، وهو ما يُعرف بـ (الدوراتُ العلميــة) في مناطق المملكــة- وخاصة في الإجــازة الصيفية- صارت الدروسُ التي تُنقل بالمئات، فحصل من ذلك خيرٌ كثيرٌ، لكن بقي جانبُ التلقــي بالمعنى المذكور في كتب العلم ناقصًا، إذ يُلقي الشــيخُ درســه، ويجيب عما تيسر من الأسئلة، ثم ينصرف.

فانبثقت فكرةُ الـدورات العلمية المنهجية، التـي تُراعي التدرجَ في الطلب، مع طول المدة نسـبيًّا، على حدّ قول الإمام الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إن هـذا العلم إنْ أخذتَه بالمكاثرة غلبَك، ولم تظفر منه بشيء، ولكن خذه مع الأيام والليالي أخذًا رفيقًا؛ تظفر به**»[1]، فصارت الدورةُ تمتد سنةً أو سنتين أو ثلاث، يتلقى فيها الطالبُ متونًا شتّى، ويتخرج بشيء من التكامل في علوم الشريعة، وبعضِ العلوم المساندة لها.

ومع انتشـار ما يُعرف بـ (الأكاديميات التعليمية) التي يسّر الله عن طريقها بثّ العلم عبر ما اصطلح عليه بـ (بالمنصّات التعليمية)، لعشراتِ بل مئاتِ الآلاف من الراغبين فيه، ومـن جميع أنحاء العالم، و(أكاديمية المجد) من أكبر الشواهد وأقواها على ذلك.

كل هذا جعل الدرسَ يكتسـب صفة العالميـة، فهل الواقع الموجود يتلاءم مع هذه الصفة؟

من المعلوم أن هذه المنصَّات التعليمية تكتسب قوتها من ثلاثة أمور:

١. المشايخ الذين يدرّسون تلك المتون.

٢. طريقة إلقاء تلك الدروس.

٣. مراعاة المتحدث لصفة العالمية، واستشعار أن المستمعين من فئات شتى، ومذاهب فقهية متفرقة، بل إن بعضهم قد يكون من بيئات مخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة، ولا أقصد بالجملة الأخيرة مداهنتَهم في ذلك، بل أن يكون الحديث العلمي مقرونًا بالرحمة، وبيان الحق، دون ألفاظٍ قد تجرح، أو تُسيء إلى المتحدِّث قبل السامع.

(١) حلية الأولياء: (٣/ ٣٦٤).

ومما تُجدر العناية به -في حديثنا عن عالمية الدرس- أمور:

الأول: مراعاة الحديث باللغة العربية السهلة، بعيدا عن الألفاظ العامّية التي قد لا يَفهمها بعضُ العرب فضلا عن غيرهم.

الثاني: أن تكون هذه الدورةُ على مستويات متعددة، تنطلق في ذات الوقت، فدورةٌ تراعي المبتدئين، وثانية تراعي المتوسطين، وأخرى للمتقدمين نسبيًّا.

الثالث: في الدول الإسلامية غير العربية، ذات الكثافة العالية سكانيًّا -كأندونيسيا، وباكستان، وتركيا، والجمهوريات الإسلامية في شمال شرق آسيا- أن توجه لهم دورات تراعي احتياجاتهم هم، بحيث يُراعَى فيها تدريس بعض المتون ذات الصلة بتلك البيئات.

الرابع: يُستحسن أن يكون هناك برامج مصاحبة لهذه الدورات، تُعْنى بالتربية والتزكية، فهذه من أعظم ثمار العلم ومقاصده، وما رُزئتِ الأمةُ اليوم في واقعها العلمي والدعوي، إلا بفقد كثيرٍ من جوانب التربية والتزكية، جعلتْ من بعض المنتسبين للعلم شماتة للأعداء، وأضحوكة لهم، بل حُقّ على بعضهم قول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾، وإنه ليرجى -إذا فعلت أمثال هذه البرامج- أن تتحقق بقية الآية: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]. اللهم، اجعلنا ممن هديتَهم صراطَك المستقيم.